

ترتيب أبواب الكتاب

دراسة منهجية

العربي ركي (*)

تقديم:

يُعدّ التأليفُ من أبرز الأمور التي تحتاجُ إلى العناية والاهتمام شكلاً ومضموناً، وتكمنُ أهميةُ التأليف والاعتناء به في أنه طريقةٌ لنشر العلم وعرض الأفكار على وفق منهجية تخضع لقوانينٍ مضبوطةٍ ونواميسٍ مدروسةٍ تسعى لغايةٍ مُحددةٍ وهدفٍ منشود، ولولا التأليفُ لما كان هذا التّواصلُ العلميّ والحضاريّ بين الحاضرِ والماضي، وبين الإنسانِ قديماً وحديثاً، وكان من عناية الأمم بالتأليف أن أنشأت له الدور والعدّة، ودعت إليه، حتى أصبح علماً قائماً بنفسه - منهجية التأليف - له قواعده وأسسُه، فمما وصلنا كتابُ العين للخيل بن أحمد الفراهيدي، الذي رتبّه على حسب مخارج الحروف، ثم جاء من بعده تلميذه سيبويه فرتب كتابه ترتيباً حير العلماء قديماً وحديثاً، وترتيب الأبواب يختلفُ من مؤلّف لآخر، ولذلك أسبابٌ منها: طبيعة الكتاب أو طبيعة العصر، أو الجانب التعليمي والإملائي الذي لا نعتقد أنّ الترتيب فيه يكونُ قائماً على رؤيةٍ مُسبقةٍ، فالأفكارُ لا تأتي دفعة واحدة بل تترى، فسيبويه كان إذا كتب شيئاً في النحو يعرضه على شيوخه وأقرانه لينظروا فيه، وليتثبت من ذلك، وقد تناول بعضُ المُحدثين بالدراسة والنقد ترتيبَ أبواب الكتاب، ومنهم من أعاد ترتيبه تسهيلاً على طلبه العلم ومسايرةً لما تقتضيه المناهج الحديثة في التأليف.

* باحث من الجزائر

بُنيت عليها بعضُ علوم العَرَبِيَّةِ كالنَّحو والصَّرْف والصَّوت والبلاغة، فهي المهاد الأُولي الذي ينبغي لكلِّ طالبٍ علمٌ أن يتقرر في ذهنه فيبني عليه باقي الأبواب والعلوم مما له علاقة بها، وهو ترتيب له مبرراته العِلْمِيَّةُ وأعداره التاريخيَّةُ وما أحاط بها من ظروف، فبعضُ الآراءِ الحديثة ترى أن تأليفَ القدماء تشوبها البلبلةُ في الترتيب، وعدمُ الانتظام في تناولِ المسائلِ العِلْمِيَّةِ، فترى كُلَّ بابٍ لا يُفصي إلى ما بعده، وبعضُ الأبوابِ الأخرى يُسلمك إلى الذي يليه إنْ انعقدتُ بينهما علاقةٌ كما هو الحال في بابي البديل وعطفِ البيان وعطفِ النَّسق، وبابِ الفاعلِ وناثبِ الفاعلِ، ... ففي هذه الأبوابِ يحقُّ لنا أن نجعلها متتابعة، وهو أمرٌ مُستحسن في التأليفِ، لا سيَّما إذا كان المؤلفُ موجهًا إلى فئة من الناس في إطارِ التعليمِ، أما الأبواب التي لا تجمعها صلة ببعضها البعض فليس ضروريًا جعلها متعاقبة إلا ما اقتضته صنعةُ التأليفِ أو أن يكونَ للمؤلفِ ترتيبٌ وراءَ لطيفة أو نكتة بديعة، فهذا ابن قتيبة يقول عن كتابه: (قرنت البابَ بشكليه والخبرَ بمثله والكلمةَ بأختها ليسهلَ على المُتعلِّمِ علمُها وعلى الدارسِ حفظُها)^(١)، فانظر كيف كانت لهم بصيرةٌ بترتيبِ الكتبِ والأبوابِ، واستحضارِ القارئِ والعناية بهِ إذ التأليفُ إليه صادرٌ.

كَانَ سَيَّبَوِيَّةٌ تَلْمِيذُ الخليلِ عَنْهُ أُخِذَ وَإِلَى دَرَسِهِ اِخْتَلَفَ، فَإِذَا احْتَدَمَ الخِلافُ النَّحْوِيُّ، أَوْ تَسَاوَتْ الأحكامُ على ما سَمِعَ وَثَبَتَ عن العَرَبِ فيكونُ

(١) عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر، المكتب الإسلامي، ط: ١ ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، بيروت، لبنان، ج ١، ص ٣.

كان سَيَّبَوِيَّةٌ يعالجُ المسألةَ الواحدةَ في أبوابٍ مُختلفة، وَيُمْكِنُ تفسِيرُ ذلكِ بأنَّ بعضَ المسائلِ النَّحْوِيَّةِ تشترك مع غيرها في بعضِ الجوانبِ، لذلك ترى سَيَّبَوِيَّةٌ يعود إليها حين يتبينُ له منها شيءٌ أو يعرض له أمر منها، فترى بين الأبوابِ تعالقًا، وأحيانًا تجدُ تداخلًا بين بعضِ الأبوابِ ومردُّ ذلكِ إلى أنَّ بعضَ الأبوابِ تلتقي فيما بينها كما هو الحال في بابِ التوابعِ (الصفة أو النعت - عطف النَّسق - عطفِ البيان - البَدَل - التَّوكِيد)، فقد يَحْدُثُ أنْ يشارَ إلى الفرقِ بينِ بابٍ وبابٍ، وقد يَظْهَرُ لسَيَّبَوِيَّةٍ في بابٍ من الأبوابِ أنْ يَشيرَ إلى بابٍ سابقٍ ليبيِّنَ مسألةَ ما تحتاج مزيدَ إيضاحٍ وتبنيهِ، فمثلًا في بابِ نَعَمٍ وَبِئْسَ يَجري الحديثُ عن الفاعلِ، فعند ذكر مسألةٍ من مسائلِ الفاعلِ في غير بابِ الفاعلِ، فإنَّ ذلكَ يكونُ من بابِ تمييزِ خصائصِ كُلِّ بابٍ وما يلزمه وما ينمازُ به عن البابِ الآخرِ، وإنْ اشتركا في بعضِ الأحكامِ، وقَسَّ هذا على بعضِ الأبوابِ الأخرى كالمفعولاتِ والتَّوابعِ **كلمات مفتاحية:** سَيَّبَوِيَّةٌ، أبواب، ترتيب، مناهج التأليفِ، طرائق التأليفِ.

دراسة منهجية لأبواب الكتاب (ترتيبًا):

ترتيبُ عناصرِ بحثٍ ما أو كتابٍ قد لا تُتصوَّرُ في بادئِ الأمرِ تصوَّرًا يجعلها تتَّصفُ بالكمالِ بل يبقى تصوُّرها قائمًا بين تقديمِ رجلٍ وتأخيرِ أخرى ما دامت الأفكارُ تتجلى وتتعاقدُ على الذهنِ ولا يستقيم أمرها حتى يكتملَ الأمرُ ويأخذَ الذهنُ لها صورةً تُمثِّلُ أجزاءها وتقلبُ عناصرها مقدمًا بعضُها على بعضٍ على وفقِ خطةٍ لها مقتضياتُها العقلية والفنية، وسأتناول بعضَ الأبوابِ التي قَسَمَ عليها الكتابُ - وسأخصُّ بالذكرِ الأبوابَ الثلاثةَ الأولى منها لأنَّها في رأيي تُمثِّلُ الأثافي الثلاثةَ التي أقيم عليها الكتابُ ترتيبًا: وهي تُمثِّلُ الأسسَ التي

المفعولات لأنها أخص منه لأنها مُقيّدة، والعالم إذا قيد صار خاصاً.

حاول د. محمد كاظم البكاء إعادة تبويب كتاب سيبويه تبويماً جديداً يتناسب مع العصر، وليكون أسهل للمتعلمين الذين لم يألّفوا كتاب سيبويه ومصطلحاته، لكننا نرى أن إعادة ترتيب أبواب الكتاب ترتيباً يتماشى مع الطرائق الحديثة في التأليف ليست ضرورة لا بد منها، ولا يجب أن تنتقد مؤلفات القدماء من هذه الجهة، فما عدناه ثغرة هو عندهم آنذاك ليس معدوداً من عيوب التأليف، فلقد كان اهتمامهم بالمتون أقوى من اهتمامهم بالجانب الشكلي، يقول د. البكاء عن كتاب سيبويه من الجانب الشكلي: (كانت نظرة العلماء إليه منذ كُتب أول بحث فيه إلى أن كتبت هذه الدراسة - بأنه كتاب خلو من المقدمة، خلو من المنهج، خلو من التنظيم والترتيب، مُفتقر إلى الخاتمة)^(٢)، وقد حاول كاظم البكاء أن يجد تفسيراً لذلك الترتيب الذي انتهجه سيبويه في الكتاب، بعد أن خيم الظلام على تلك المسألة دون أن يوجد لها حل أو تفسير مقنع، يقول كاظم البكاء: (وحين درست أبنية الصّرف في كتاب سيبويه حاولت أن أبين أن للكتاب منهجاً اتضح في تنظيمه أبواب علوم العربيّة التي يضمّها، إذ بدأ بالنحو وتدرّج منه إلى موضوعات لها مَساس بالدراسة الصّرفية، تخلص منها إلى موضوعات صرفية بحثة، أتبعها بموضوعات تتردد بين الصّرف والصّوت وختمه بالحديث الصوتي في باب التضعيف، والإدغام الذي اهتم به فجعله خاتمة لكتابه لاحتياج

(٢) منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي، محمد كاظم البكاء، دار الشؤون الثقافية العامة، ط ١ ٩٨٩م، بغداد، العراق، ص: ٥.

الخليل مُرجحاً، ولا شك أن سيبويه قد اطلع على كتاب العين وأعجب بما جاء فيه وبترتيبه، فلم جاء الكتاب على نحو مُختلف تمام الاختلاف من جهات عدة عما جاء عليه معجم العين؟ كان من شأن النحاة والعلماء قديماً أن يتفننوا في تسمية مؤلفاتهم إذ التسمية أو العنوان دافع قوي للإقبال على تناولها، أما ترتيب عناصر متونها وجعلها كالقعد المنظوم فقد كان مما تنافسوا فيه، فهذا الخليل في عينه رتبته على مخارج الحروف ومباني الألفاظ وعلل ذلك في مقدمته: (بدأنا في مؤلفنا هذا بالعين وهو أقصى الحروف، ونضم إليه ما بعده حتى نستوعب كلام العرب الواضح والغريب، وبدأنا الأبنية بالمضاعف، لأنه أخف على اللسان وأقرب مأخذاً للمتفهم)^(٢)، فقد بين أسباب هذا الابتداء فبدأ بالأقصى لصعوبته ولبعده، أما في الأبنية فبدأ بالمضاعف لخفته ولأنه في الأصل ثلاثي اتسم بخاصية الخفة، ولما فيه من بيان الأصول التي لا بد من معرفتها والوقوف على أحوالها، والأمر الآخر هو أنها طريق الفهم بها تحصل معرفة تفكيك ما تركّب، ورد الأبنية إلى أصولها، وثمة أمر آخر وهو أنه ليس بالضرورة أن ترتب مسائل كتاب ما ترتيباً تتعاقق فيه أبوابه، فليست العلوم في ذلك على حد سواء، فالأبواب النحوية ترتب ترتيباً تتجاذبه معايير عدة، كمعيار الأولوية ومعيار الأسبقية ومعيار الحكم الإعرابي... ففي باب المنصوبات يختلف الترتيب داخل هذا الباب، فيقدم المفعول المطلق لأنه عام ثم تأتي بعده باقي

(٢) كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، مصر، ١ / ٦٠.

القرءاء إليه واهتمامهم به...^(٤)، إن محمد كاظم البكاء ههنا تكلم عن العلوم التي تَضَمَّنَهَا الكِتَاب وترتيبها حيث كان النَّحْو هو الأوَّل ثُمَّ تَخَلَّصَ منه إلى الصَّرْف ثم ختم الكِتَاب بعلمِ الصَّوْتِ، أما ما أريدُ إثباته في هذا البحث فهو ترتيبُ الأبواب في الكِتَاب دون الحديثِ عن علومِ اللُّغَةِ، وهذا أمرٌ أشار إليه محمد كاظم البكاء وتحدَّث عنه، والغريبُ أنَّه لم يتحدَّث في كتابه عن البابين الأوَّل والثاني وعمد مباشرة إلى البابِ الثالثِ الموسوم بـ(هذا بابُ المُسْنَدِ والمُسْنَدِ إليه).

إن سيبويه بحق كان بارعاً في مؤلّفه فقد جعله على أبوابٍ كثيرة ويكونُ بذلك قد اتّبع طريقة شيخه في كتابِ العين حين وضع كتابه على أبوابٍ غير أنَّه أضفى على كتابه مسحةً فاقت ما كان عليه شيخه الخليلُ بنُ أحمد الفراهيدي، وكثيراً ما يُعلّم أبوابه بقوله: هذا باب... وهي عباراتٌ تمتد على أبواب الكِتَاب كِله تقريباً، ومن الأشياء التي تُحسب لسيبويه وتدلُّ على أنَّه صاحبُ نظر ثاقب، وعقل راجح، أنَّ أوَّل بابٍ وضعه كان مُختلِفاً اختلافاً كلياً عن باقي الأبواب الأخرى، فقد سمّى أوَّل بابٍ بقوله: (هذا بابٌ علم ما الكلم من العَرَبِيَّة)^(٥)، فهذا العنوان للبابِ الأوَّل من الكِتَاب لم يأت هكذا خبطاً عشواء، بل هو مقدمة ومُدخلٌ به نلج إلى باقي الأبواب، وهو من الأبواب التي تنعقد عليها الأبواب الأخرى، فقد ذكر العلماء والشراح أن مقاصد سيبويه كانت بعيدة، فهذا أبو سعيد السيرافي تعرّض إلى ألفاظ هذا البابِ شارحاً مقاصد سيبويه شرحاً، يدلُّ على فهم

(٤) نفسه، ص ٦.

(٥) الكِتَاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، ط ١ / دس، بيروت، لبنان، ١ / ١٢.

صحيح لمقاصد سيبويه، وحَمَل ألفاظه وعباراته من الدلالات والمعاني ما يُغني عن البحث، وقرأه قراءة ناقدة بفكر ثاقب ودراية خبير بما تحمله الألفاظ من معانٍ ودلالات، وتأويلات، وقد أتى السيرافي بتفسيرٍ جامع مانع لهذا الباب، ولم يترك لمريدٍ زيادةً من زيادة، فقد تعقّب بعض الأبواب كلمةً كلمة شارحاً مقاصد سيبويه، على حسب ما تتحمّله الألفاظ من المعاني والدلالات، فقال: «هذا باب علم ما الكلم من العَرَبِيَّة» هذا موضوع كتابه الذي نقله عنه أصحابه، ويسأل في ذلك عن أشياء: فأولها: أن يقال: إلام أشار سيبويه بقوله: هذا. والإشارة بها تقع إلى حاضر؟ فالجواب عن ذلك أنَّه يحتمل ثلاثة أوجه، أحدها: أن يكون أشار إلى ما في نفسه من العلم، وذلك حاضر، كما يقول القائل: قد نفعنا علمك هذا الذي تبثه، وكلامك هذا الذي تتكلم به^(٦)، إن استعمال اسم الإشارة في مثل هذه المواضع هو خروجٌ عن المؤلف، فالأصل أن يشار به لقريبٍ ماثل بين يديك، لكن سيبويه أشار به إلى هذا الباب وغيره من الأبواب توكيداً لأهميته أو تنويهاً بأمره ورفعاً لمنزله وتعظيمًا لشأنه، كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُنْقِذِينَ﴾^(٧)، فاستخدم اسم الإشارة للتنبيه وتعظيم أمر البيان ورفعاً لقيمته، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾^(٨)، فقد أشار إلى السفر الشاقّ المتعب بلفظ اسم

(٦) شرح كتاب سيبويه، الحسن بن عبد الله بن المرزبان أبو سعيد السيرافي، تحقيق: أحمد حسن المهدي وعلي سيد علي، دار الكتب العلمية، ط ١ / ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨، بيروت، لبنان، ١ / ٩.

(٧) آل عمران / ١٣٨.

(٨) الكهف: ٦٢.

الإشارة تعظيماً لمشقته وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ «الشعراء الآية ٣٤»^(٩)، هنا لم يسم موسى باسمه وإنما كنى عنه تحقيراً له وغمطاً لمنزلته، وهذا كثير في كلام العرب، فإنهم إذا أرادوا احتقار شخص وتنزيلاً لمنزلته حقداً وحسداً، أو رفعا لمنزلته وتقديراً لمكانته، كمال قال الفرزدق:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحل والحرم

(والثاني: أن يكون أشار إلى متوقع قد عرف وانتظر وقوعه في أقرب الأوقات إليه، فجعله كالكائن الحاضر تقريباً لأمره، كقوله: « هذا الشتاء مقبل»، و « هذا الخليفة قادم»، ومثله قول الله عز وجل: (هذه جهنم التي يُكذَّب بها المُجرمون)).

والثالث: أن يكون وضع كلمة الإشارة غير مشير بها؛ ليشير بها عند الحاجة، والفراغ من المشار إليه. كقولك: «هذا ما شهد عليه الشهود المسمون في هذا الكتاب» وإنما وضع ليشهدوا وما شهدوا بعد^(١٠)، إن اسم الإشارة حمال أوجه كما ذكر السيرافي، والشواهد التي ذكرها السيرافي أصابت جادة الحق، فسيبويه استعمل اسم الإشارة في كل أبواب الكتاب، وليست كل الأبواب بمنزلة واحدة من جهة القيمة، ومن جهة الأهمية، وعليه فإن تصدير الأبواب باسم الإشارة هي السمة الغالبة في كل أبواب الكتاب، عدا بعض الأبواب التي لم يضع في صدرها اسم الإشارة، وهي:

١- باب الحذف.

٢- باب البديل.

٣- باب التقديم والتأخير.

(٩) الشعراء: ٣٤.

(١٠) شرح كتاب سيبويه، السيرافي، ١ / ٩.

ولا يُدرى على وجه التحديد لم لم يُصدرها بعبارة: «هذا باب...» ولكن نقول: إن هذه الأبواب منها ما يتناول علم البلاغة ومنها ما هو مشترك بين البلاغة والنحو، وكل يتناول ذلك الباب من زاوية مُختلفة عن الزاوية التي يتناول بها العلم الآخر ذلك الباب.

لذلك فإن هذا التصدير قد تختلف التأويلات حوله ومهما يكن من أمر فإن أحسن التأويلات التي يلتمس فيها العذر لصاحب الكتاب أن يقال: ١- إن سيبويه نحا فيها منحى تعليمياً لذلك جاء باسم الإشارة تنبيهاً للقارئ ليزداد حرصه على تحصيل تلك الأبواب.

٢- إنه أراد تعظيم شأن تلك الأبواب لفضلها وقيمتها.

٣- إن تلك الإشارة تُنبئ عن حرصه وتأكيد أهمية تلك الموضوعات، ليحرص عليها طلبة العلم.

٤- إنه حين كان يكتب الكتاب إنما كان يكتب مسائله في كراريس.

يقول السيرافي: (وأما «علم» فمصدر، أما أن يكون مصدر أن تعلم أو أن يعلم، لأن المصادر العاملة عمل الأفعال تقدر بأن الخفيفة والفعل بعدها، فإذا قدر «علم» بأن تعلم ... ولم يقل «الكلمات» لأنها جمع مثل الكلم، والكلم أخف منها في اللفظ، فاكتفى بالأخف عن الأثقل، إذ لم يكن في أحدهما مزية على الآخر)^(١١)، فاستعمل المصدر بدل فعله أو ما ينبو عن المصدر أمر شائع في كلام العرب، فلا ضير في ذلك، فقد يعبر عن المصدر بأن المصدرية وما دخلت عليه، كما أنه يمكن استخدام العكس، والتعبير بالمصدر الصريح أفضل من التعبير بالمصدر المؤول لأن في المصادر المؤولة لا

(١١) المصدر نفسه، ١ / ٩.

يَنعَدُّ الزَّمَنُ بَيْنَمَا فِي الْمَصَادِرِ الصَّرِيحَةِ يَنعَدُّمُ الزَّمَنُ، وبذلك تكونُ مَادَّةُ عِلْمٍ سَوَاءً أَقْصَدَ بِهَا الْفِعْلُ مَرْتَبَطًا بِالزَّمَنِ أَوْ قَصَدَ بِهَا الْمَصْدَرُ الَّذِي يُفْهَمُ مِنْهُ الْحَدَثُ غَيْرَ مَقْتَرِنٍ بِالزَّمَنِ، فَإِنَّ تِلْكَ اللَّفْظَةَ حَمَالَةٌ أَوْجِهَ فحَيْثُمَا أُرِدَتِ الْكَلِمَةُ عَلَى أَيِّ صُورَةٍ حَصَلَتْ لِكَ دَلَالَتِهَا وَتَبَيَّنَ لِكَ مَعْنَاهَا، وَإِلَى الْمَعْنَى نَفْسِهِ نَهَبَ صَاحِبُ التَّعْلِيْقَةِ عَلَى كِتَابِ سَيَبَوِيهِ حَيْثُ قَالَ: (وَالكَلْمُ مَبْتَدَأٌ خَبْرُهُ مَا وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى تَقْدِيرِ هَذَا بَابٌ أَنْ تَعْلَمَ مَا الْكَلْمُ، فَفَاعِلٌ عِلْمَ الْمُخَاطَبِ)^(١٢).

ويقول عن كلمة (الكلم) التي ذكرها سيبويه في الكتاب (ووجهُ ثانٍ: أَنَّ الْكَلْمَ اسْمٌ ذَاتُ الشَّيْءِ، وَالْكَلامُ اسْمُ الْفِعْلِ الْمُصْرَفِ مِنَ الْكَلِمِ، كَمَا أَنَّ النَّعْلَ الْمَلْبُوسَةَ اسْمٌ ذَاتُ الْمَلْبُوسِ، وَالانْتِعَالَ وَالتَّنْعِيلَ وَالانْعَالَ، وَمَا أَشْبَهَهُ اسْمُ الْفِعْلِ الْمُصْرَفِ مِنْهَا، وَالْفِعْلُ قَبْلَمَا صُرِّفَ مِنْهَا، فَكَذَلِكَ الْكَلْمُ قَبْلَمَا يُصْرَفُ مِنْهَا، وَأَقْدَمُهَا فِي الرِّتْبَةِ اسْمُ الذَّاتِ، فَذَكَرَهُ دُونَ اسْمِ الْحَدَثِ، وَالْمَصْدَرُ الَّذِي هُوَ فَرْعٌ، وَلَوْ ذُكِرَ الْكَلَامُ، مَا كَانَ مَعْيِيًّا، وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ الْأَفْصَحَ الْأَجْوَدَ لِمَعْنَاهُ الَّذِي أَرَادَهُ)^(١٣)، وَهَذَا تَفْرِيقٌ جَيِّدٌ مِنَ السِّيْرَانِيِّ بَيْنَ الْكَلِمِ وَالْكَلامِ، فَسَيَبَوِيهِ كَمَا يَقُولُ السِّيْرَانِيُّ اخْتَارَ الْأَفْصَحَ، هَذَا مِنْ جِهَةٍ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ مَرَادَهُ مِنَ الْكَلِمِ (الاسْمُ وَالْفِعْلُ وَالْحَرْفُ)، فَلَوْ ذَكَرَ الْكَلَامَ لَمَا كَانَ حَسَنًا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى تِلْكَ الْأَقْسَامِ فَلَيْسَ مَرَادُهُ عَلَى مَدَارِ التَّرْكِيبِ، بَلْ مَرَادُهُ عَلَى دَلَالَةِ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ عَلَى الْمَسْمِيَّاتِ.

وَكثِيرًا مَا يَفْتَرِضُ السِّيْرَانِيُّ أَسْئَلَةً يَطْرَحُهَا

(١٢) التعلیقة على كتاب سيبويه، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي، تحقيق: عوض بن حمد القوزي، مطبعة الأمانة، ط ١، ١٤١٠هـ — ١٩٩٠م، القاهرة، مصر، ٣/١.

(١٣) شرح كتاب سيبويه، السيراني، ١/١٢.

لِيُبَيِّنَ مَرَادَهُ أَوْ مَرَادَ سَيَبَوِيهِ وَهُوَ أَمْرٌ شَائِعٌ عِنْدَ الْقَدَامِيِّ، كَقَوْلِهِ: (وَالسَّائِلُ أَنْ يَسْأَلَ فَيَقُولُ: لَمْ قَالَ: «الْكَلْمُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ» وَالْكَلِمُ أَعَمٌّ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ، لِأَنَّهَا تَشْمَلُهَا وَالْعَجَمِيَّةُ، وَبَعْضُ الشَّيْءِ أَقْلٌ مِنْ جَمْعِهِ، وَالَّذِي يَتَّصِلُ بِمَنْ هُوَ الْمُبْعُضُ لَا الْبَعْضُ، وَهُوَ الْكَثِيرُ الَّذِي يَذْكَرُ مِنْهُ الْقَلِيلُ؟ قِيلَ لَهُ: فِي ذَلِكَ جَوَابَانُ:

أحدهما: أَنَّهُ ذَكَرَ «الْكَلِمَ» الَّتِي هِيَ شَامِلَةٌ عَلَى جَمِيعِ مَوْضِعِ الْكَلَامِ، وَأَرَادَ بَعْضُهَا، لِأَنَّهُ رَائِزٌ سَائِعٌ ذَكَرَ الْفِعْلَ الْعَامَّ وَإِرَادَةَ الْبَعْضِ، ثُمَّ بَيَّنَّ الْبَعْضَ الْمَرَادَ، خَشْيَةَ اللَّبْسِ، فَكَأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: «مَا الْكَلِمُ» وَهُوَ مَرِيدٌ لِبَعْضِهَا خَشْيَ أَنْ لَا يُفْهَمَ الْمَعْنَى الَّتِي هِيَ مَرَادُهُ، فَقَالَ: «مِنَ الْعَرَبِيَّةِ»، تَبْيِينًا لِمَا أَرَادَ، وَتَلْخِيصًا لِمَا قَصَدَ، لِئَلَّا يَبْقِيَ لِلْسَّائِلِ مَسْأَلَةٌ وَلَا لِلطَّاعِنِ مُتَعَلِّقًا، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) لَمَّا كَانَ الرَّجْسُ يَقَعُ عَلَى الْأَوْثَانِ وَغَيْرِهَا بَيَّنَّ الَّذِي أَرَادَ بِالنَّهْيِ مِنَ ضُرُوبِ الرَّجْسِ.

وَالْوَجْهَ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِالْكَلِمِ الْاسْمَ وَالْفِعْلَ وَالْحَرْفَ الَّذِي جَاءَ لِمَعْنَى، وَهُوَ مَا ضَمِنَهُ هَذَا الْبَابُ الَّذِي تَرَجَّمَهُ بِهِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ هِيَ اسْمٌ وَفِعْلٌ وَحَرْفٌ، هُنَّ بَعْضُ الْعَرَبِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبِيَّةَ جُمْلَةٌ وَتَفْصِيلٌ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ كُلُّ الْعَرَبِيَّةِ، وَالِدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِحَقِيقَةِ الْاسْمِ وَالْفِعْلِ وَالْحَرْفِ أَحَاطَ عِلْمًا بِالْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا، وَالِدَلِيلُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ الثَّانِي مِنْ قَوْلِ سَيَبَوِيهِ قَوْلُهُ: «هَذَا بَابٌ عِلْمٌ مَا الْكَلِمُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ...»^(١٤)، فَعِلْمُ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْقَدِيمِ لَمْ يَكُنْ يَحْظَى بِتِلْكَ التَّقْسِيمَاتِ الَّتِي نَعْرِفُهَا الْآنَ، بَلْ إِنَّهَا كَانَتْ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَكَانَتْ لَفْظَةَ الْعَرَبِيَّةِ تَطْلُقُ

(١٤) شرح كتاب سيبويه، السيراني، ١/١٢ ١٣.

على كُلِّ من النُّحو والبلاغة وفقه اللُّغة ... وسيبويه ههنا جرى على ما كان سائداً في عصره ولم يخرج عليه، وذلك أمرٌ معهود عند الناس في كُلِّ زمان. أما عن جعله في أولِ الأبواب فلأنَّه أولُ ما يجب أن يعرفه كُلُّ مشتغلٍ بالعربيَّة، فهذه القسمةُ صحيحةٌ استقراءً ومنطقاً، فكلُّ الأبوابِ عيالٌ على البابِ الأول، لذلك بيَّنه بياناً تاماً، بأمثلةٍ بسيطةٍ واضحة.

أما البابُ الثاني فقد سماه (هذا بابٌ مجاري أو آخرِ الكلم من العربيَّة)^(١٥)، وهذا البابُ حقيقٌ بأنَّ يكونَ ثانيَ الأبوابِ لأنَّ الكلمَ الذي تحدث عنه في البابِ الأولِ وجبَ أنْ تلحقه مجاري البابِ الثاني الذي تحدث فيه الإعراب والبناء - أي حركات الإعراب والبناء، فما النُّحو إلا ضبط أو آخرِ الكلم، فبعد أن بين أقسام الكلام وحقيقتها عمد بين وجوه الإعراب والبناء حالة التركيب ليعلم الطالبُ الفرقَ بين البناءِ والإعرابِ وسماه مجاري واحدهُ مجرى.

أما البابُ الثالثُ فسماه (هذا بابُ المُسندِ والمُسندِ إليه)^(١٦)، وهذا البابُ من الأبوابِ الأصول التي لا بُدَّ تَنصُرُ حقائقها وتُدركُ ضوابطها إدراكاً يمهد مسائل النُّحو، فالمُسندُ والمُسندُ إليه وهما عمَدتا الجُمْل الاسميَّة والفعليَّة، ولا انعقادَ للجُمْل إلا بهما ظاهرين أو بحذف أحدهما، بهما ينعقدُ الكلامُ وينطقُ اللسان، يقولُ عنهما سيبويه: (وهما ما لا يَغْنَى واحدٌ منهما عن الآخر ولا يجد المتكلمُ منه بُداً)^(١٧)، فقد بيَّن سيبويه المبادئ التي هي أشبه بالقواعد الأصوليَّة في علم أصول النُّحو، وهي قواعدٌ جامعةٌ مانعة.

والاسنادُ مبحثٌ تركيبِي يُعنى بتركيب الكلم مع بعضه وما يَنْتج عنهما من صحيح المعنى وسقيمه، وتقديم لفظ على آخر، وما يجوزُ من ذلك وما لا يجوزُ، وسيبويه في كثيرٍ من الأبوابِ تراه يشير إلى بعض المسائل إشارةً طفيفةً خفيفةً، ثم يشير إلى باقي المسائل في أبوابٍ أخرى، فكأنِّي به يستحضر ما يخطرُ على باله في غير موضعِ البابِ فيذكره في موطنٍ غير موطنه.

فليست كُلُّ المسائلِ يَسْتَحْضِرُها العقلُ في كُلِّ آن فمنها ما يَخلف إلى حين، ومنها ما يُستحضر أثناء التآليف، بل منها ما يتأخرُ فيستدرِكُه في بابٍ آخر، فمثلاً في بابِ الفاعلِ يقول: (الذي لم يتعدَّ فعله إلى مفعول)^(١٨) فذكرَ هنا الفعلَ اللازمَ المكتفي بفاعله، ثم قال: (والمفعولُ الذي لم يتعدَّ إليه فعلُ فاعلٍ ولا يتعدَّى فعله إلى مفعولٍ آخر...)^(١٩) ثم قال: (وما يعمل من أسماء الفاعلين والمفعولين عملَ الفعلِ الذي يتعدَّى إلى مفعول، وما يعمل من المصادر ذلك العمل، وما يجري من الصفات التي لم تبلغ أن تكون في القوة كأسماء الفاعلين والمفعولين التي تجري مجرى الفعل المتعدي إلى مفعولٍ مجراها، وما أجرى مجرى الفعل وليس بفعل ولم يقو قوته)^(٢٠)، وكأنِّي بسيبويه في هذا البابِ يعمد إلى حصرِ أنواعٍ معينة فيجملُ ذكرها ثم يفصلها تفصيلاً، ففي بابِ الفاعلِ الذي سماه (بابِ الفاعل) دون أن يذكر لفظ (هذا) تراه يتحدث عن الفاعلِ ونائبه وما ينوبُ عنه ويعمل عمله، وذلك واضحٌ من تقسيم هذا البابِ إلى أبوابٍ أخرى مفصلاً ما أجمله في البابِ الأول.

(١٨) المصدر نفسه، ج: ٠١، ص: ٣٣.

(١٩) المصدر نفسه، ج: ٠١، ص: ٣٣.

(٢٠) المصدر نفسه، ج: ٠١، ص: ٠٩.

(١٥) الكتاب، ١ / ١٣.

(١٦) الكتاب، سيبويه، ج: ٠١، ص: ٢٣.

(١٧) المصدر نفسه، ج: ٠١، ص: ٢٣.

إن سيبويه حين قال في باب الفعل: (فهذه الأمثلة التي أخذت من لفظ أحداث الأسماء ولها أبنية كثيرة سنبينها إن شاء الله)^(٢١)، ففي هذا إشارة إلى خطة موضوعة سلفاً، أو في الأقل كان له تصوّر أقامه في عقله لهذا الكتاب وأبوابه، فاستعماله كلمة أبنية قصد به الصّرف، وذكر الأحداث ومراده المصادر، وهي محاولة للفصل بين النحو والصّرف.

إنّ اعتناء سيبويه بالأبواب الأولى وتقديمها وترتيبها على نحو ما هي عليه يعدُّ حسنة من حسنات سيبويه، فإذا كان الشعراء يتنافسون في استهلال قصائدهم بمقدمات طلّية، فإن سيبويه في هذا يصنع صنيعهم، فالكتاب خالٍ من المقدمة، فكانت الأبواب الثلاثة مقدمة وكفى بها مقدمة.

خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية نقول: إن مناهج التأليف تختلف اختلافاً شديداً بين قديمها وحديثها، ولكل منها مبرراتها وظروفها التي أحاطت بها، والعوامل التي أفرزتها، والناس يألفون - حسب العصر والمجتمع - ما وجدوه قائماً بينهم واعتادوا عليه، ولا يرون في ذلك بأساً، ولكنّ التفاضل بين طرائق التأليف ومناهجه قائم لا محالة، وتراثنا حافل بطرائق التأليف ومناهجه ويحتاج دراساتٍ معمقة في هذا الجانب، فنأخذ منها الحسن ونقوم ما فيه نقص، لذلك فإن من نتائج هذا البحث وتوصياته:

١- إن سيبويه خالف شيخه الخليل في طرائق التأليف، وهذا الاختلاف له مبرراته فالموضوعات مختلفة فشتان بين المعجم وآليات وضعه وترتيبه

(٢١) الكتاب، سيبويه، ج: ٠١، ص: ١٢.

وبين كتاب في النحو.

٢- منهج سيبويه خلو من المقدمة وذلك في منهج برأسه، وطريقة كما هو الحال في الخطبة البتراء، فكتابه في النحو والصّرف، وكل باب من الأبواب هو نفسه مقدمة في بابه.

ومن التوصيات التي نرجو أن تلقى قبولاً عند الباحثين أن توسع دائرة البحث في المؤلفات النحوية من جهة مناهج التأليف، فنحن على ثقة بأن أسلافنا من العلماء في مختلف المجالات كانت لهم اليد الطولى في ترسيخ مناهج التأليف وطرائقه، فقد تركوا لنا مؤلفات كثيرة مختلفة لكل واحد منهم منهجه الخاص في التأليف والتبويب والترتيب.

المصادر والمراجع:

- التعليقة على كتاب سيبويه، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي، تحقيق: عوض بن حمد القوزي، مطبعة الأمانة، ط ١- ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، القاهرة، مصر.

- شرح كتاب سيبويه، الحسن بن عبد الله بن المرزبان أبو سعيد السيرافي، تحقيق: أحمد حسن المهدي وعلي سيد علي، دار الكتب العلمية، ط ١- ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، بيروت، لبنان.

- كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: مهدي الخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، مصر.

- الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط: ٠١ / دس، بيروت، لبنان.

- الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط: ٠٣ / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، القاهرة، مصر.

- منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي، د. محمد كاظم البكاء، دار الشؤون الثقافية العامة، ط: ٠١ / ١٩٨٩ م، بغداد، العراق.